المثقف التونسي بين المقهى والكتاب: شهادات

طاولة المقهى كانت تجمع بين اليساري واليميني والمتطفل والمومس والشرطي والصعلوك في حوارات حارة

المكان الاول للكتابة بعد المعاناة.. وكل ما يسطره الشعراء فتات موائدها والمقهى الغرفة الارحب في قلب المبدع

صوفية الهمامي*

■ تحول «المقهى» من ظاهرة اجتماعية إلى تجربة فنية عند بعض الأدباء والمثقفين وصار فضاء سرديا أو شعريا عند هذا الشاعر أو ذاك الروائي، فهم يتذكرون بمحبة وفخر النصوص التي كتبوها في «المقهى» وعلاقتها بالزمان والمكان. وتجمع كل الآراء تقريبا على أن «المقهى» فضاء رئيسي من فضاءات الثقافة التي ينظم فيها العمل الثقافي ويفكر فيها في الشأن الثقافي ويمارس فيها النشاط الثقافي وينتقد فيها الشأن الثقافي وتخرج منها مشاريع وأفكار للنهوض بالعمل الثقافي والاختيارات الثقافية. خرج «المقهى» من شكله القديم ليصبح أهم الفضاءات الثقافية عطاء بعد أن ثبت انه فضاء اجتماعي وسياسي واقتصادي. هل سحر «المقهى» هو الذي أثرى التجارب الإبداعية بعد أن ثبت أنه ضرورة للأديب والمثقف الذي لا يستطيع العيش بدونه؟ وتنبع هذه الضرورة من حالة التأمل وإنجاز الكتابة التي ربما لا يستطيع الكاتب إنجازها في البيت، وأصبح «المقهى» يمثل متنفسا للضغط النفسي والتخلص من الجدية والصرامة الزائدة في حياته؟ ما الذي يسعد المثقف وهو يجلس في «المقهى» أكثر... الجريدة.. المجلة.. الكتاب.. الأصدقاء.. أم الشارع؟

ففي «المقهى» يركز الرواد على قراءة الجريدة مما جعلها تصبح إدمانا يوميا.

وهل يخلق «المقهى» ثقافة ذات ملامح محددة في أعمال المثقف المنتج؟ أم أن بإمكان «المقهى» أن يعوض مكاسب الكتاب المعرفية؟ وفي المقابل هل نستطيع أن نتعرف على المثقف الذي لا يؤم «المقهى» من خلال إنتاجه الثقافي؟

هل «المقهى» الثقافي ظاهرة عربية أم ظاهرة عالمية؟ وماذا عن تلك العلاقات العريضة التي تشكلت بين رواد «المقهى» من المثقفين وبين نادل «المقهى»؟ فكم من نادل كان البطل رقم واحد في روايات عدة، وماذا يعني النادل للبعض الآخر هل هو مجرد رقاص ساعة يغدو ويروح في فضاء «المقهى»؟

المقهى بين غاد ورائح

من أراد مقابلة الدكتور عبد القادر بن الحاج نصر الأديب التونسي صاحب الإنتاج الغزير في عالم السرد فعليه أن يقصد مقهى أبو نواس بالعاصمة تونس وحتما سيجده هناك، يحتل ركنا أنيقا يستقبل فيه ضيوفه من أدباء وصحفيين، وتقوم على خدمته نادلة سمراء يناديها باسمها وكأنه يعرفها منذ زمن بعيد.

عن علاقته «بالمقهى» يقول هذا الروائي:

«المقهى»، عالم عجيب، ملاذ إذا أردت، استراحة المتعب من السير عبر الأنهج والأزقة، مكان للتأمل والنظر في الناس والأشياء. ليس أجمل من الجلوس في ركن دافئ، أيام الشتاء في «مقهى» لاحتساء قهوة سوداء دون زيادة في السكر أو نقصان، وليس أجمل بعد ذلك من النظر عبر البلور إلى المطر ينزل على الإسفلت، إنها باريس، على جانبي شارع «سان ميشال»، والأنهج المتفرعة عنه، حيث «المقهى» عادة جميلة يمارسها الشاعر والقصاص والصحفي ورجل الشارع. أتذكر مقهى رائعا في نهج «سوفلو» بباريس كنت أجلس فيه، أخاطب البخار المتصاعد من فنجان القهوة، وأتصفح جريدة «لوموند»، كلما كان في الجيب ثمن القهوة والصحيفة. من خلال بلور «المقهى» أتطلع إلى ساحة «البنتايون» Pantheon حيث يرقد عظماء الفكر والثقافة والأدب، أولئك الذين أعطوا عصارة تجاربهم وتأملاتهم وصاغوا آراءهم من أجل تجديد خلايا المجتمع، وتغيير النظم البالية في السلوك الاجتماعي، والممارسة السياسية والتعامل الحضاري، وبناء علاقات جديدة تتماشى ونبض العصر. الشعر كان أداة صراع وتغيير، والمسرح أيضا والرواية والقصة والرسم والنحت، والموسيقى والغناء. حضارة أسست على قواعد الفكر المتحفز والمواجهة بالكلمة المسؤولة.

المطر على الرصيف، والمطريات تتزاحم فوق الرؤوس، والناس يسعون وراء الرزق. وأنا جالس وبخار القهوة يتصاعد ويتبخر في فضاء «المقهى»، والرواد يأتون على عجل وينصرفون على عجل، البعض يلقي القهوة المرة في جوفه برشفة واحدة. في أحد الأركان شاب وفتاة، عاشقان يتناجيان، والنادل ينتقل بخفة الحمام الزاجل بين الطاولات، أنسى القهوة أمامي، أضع الصحيفة جانبا، وأبسط ورقة بيضاء وأشرع في الكتابة.

أنا في تونس، في «مقهى» شعبي، موسيقى صاخبة تملأ المكان، ومجموعات تلعب الورق ومجموعات تتفرج، ضرب على الطاولات، وكلام متداخل وصياح،أحيانا تشابك بالأيدي، هذا يجعلني أغوص في صياغة أحداث قصة، أرسم ملامح الشخصيات أستعين ببعض لاعبي الورق، تتطور مجريات القصة من خلال حركة اللاعبين وأطوار اللعبة. قد أغادر «المقهى» دون أن ابرح مكاني، أتتبع خطوات أحد اللاعبين المهزومين، أو المنتصرين أطرق باب منزله وأتجول في أنحائه.. أحدق في ملامح زوجته وأبنائه، أستشف التعب في الأحداق، وراء كل حدقة قصة وصراع ومتاهة. أسافر في المأساة التي تعبر عنها الأصابع المتشنجة للاعبي الورق أو حركة ارتشاف القهوة والشاي، أو إصرار الشفتين على امتصاص عقب السيجارة.

المكان الأول للكتابة بعد المعاناة هو «المقهى»، وكثيرا ما أجد نفسي مندفعا وراء الأفكار، أجري وراء ذؤابة القلم التي تلهث على الورق والعرق يتصبب لكن السير يظل متواصلا وكأنه سير على أرض لا نتوءات فيها ولا حفر ولا أخاديد.

كم ساعات قضيت في أمكنة لا صخب فيها ولا حركة، أحاول أن أكتب فتتعطل حركة الكلمات، حتى أحسبني أحفر في الصخر بأظافري. أولى رواياتي «الزيتون لا يموت» والتي توجت بجائزة هامة وهي مبرمجة حتى الآن ضمن روايات المطالعة عند أبناء المدارس الثانوية، كنت أنجزتها داخل «مقهى» وفي زمن قياسي وبقيت أحب النصوص إليّ.

ربما تغير الحال، بعض الوظائف التي مررت بها وبعض الأماكن التي حللت بها ثم رحلت عنها، الوجوه التي تعاقبت أمامي منها ما بقي في النفس ومنها ما غاب عن الذاكرة، الأحداث الوطنية والقومية التي ارتسمت أصداؤها في القلب والخاطر، محاولاتي المتكررة للخروج من جلدي والبحث عن البديل.. الخوف من الثابت الذي لا أساس له أو الهروب والمواجهة والتأمل والانكماش، والصراع والأسئلة التي لا أجد لها ردا.. كل هذا جعلني أبحث عن الأمكنة الهادئة وعن زوايا يقل فيها الضجيج والحركة.

انتقلت إلى نوع آخر من «المقاهي»، دون أن أقطع الرابط الذي يربطني بأيام الإبداع الأولى. وتلك بصمات بقيت في القلب والوجدان، أمر أمامها كما يمر الحبيب العاشق بالأطلال. ما أكتبه اليوم يرتبط بقضايا الإنسان في هذه المرحلة الحرجة من حياتنا العربية، أستقي مادتي من هموم المرء الذي يرزح تحت أثقال العولمة والغزو الثقافي، والتهديد بوجوب تغيير الهوية والقيم ومناهج الحياة وملامح التاريخ والحضارة والدين بالقوة.

الأمكنة التي آوي إليها لأقول ما يختلج في صدري أمكنة تفرضها طبيعة الهموم. الآن أحدق في مظاهر تناقض ومظاهر الزمن الماضي، زمن المدن ذات الشوارع الفسيحة، والساحات الهادئة حيث الكل يجد مأواه وضالته دون زحام ودون خوف من اللحظة القادمة، أحدق فأتعجب.

وإذا كانت الأحداث التي نعيشها تتفاقم عنفا وقسوة كل يوم جديد، وتتحول إلى مطارق حديدية تقرع رؤوسنا، فإن ساحل الأمان لكي نكتب ونفكر يصبح هو «المقهى» الهادئ الذي لا يؤمه إلا زوار قليلون ولا تستمع فيه إلى صلصلة الكؤوس وأزيز الملاعق وصياح النادل.

أرأيت كم أنا في زمن الضجيج ابحث عن الصمت والسكون، خلافا لزمن الهدوء حيث كنت ابحث عن أوج الحركة والغليان. ليس هناك تناقض أبدا، إن الظواهر لا تعني بالضرورة حقيقة النفوس، ولا تعني ما سيكون عليه الواقع بعد ساعة أو يوم أو سنة، والكاتب، خاصة إذا كان قصاصا، روائيا، شاعرا، أو مسرحيا، لا يعنيه غير البحث عما يكمن وراء الملامح. ومن أجل ذلك يظل يبحث عن الزاوية المناسبة التي تمكنه من النظر على ما تحت السطح، و«المقهى»، حسب الحال، أنسب مكان لاستجلاء حقيقة الحاضر والمستقبل.

فيا «مقهى»، ستظل قبلة المبدعين، وسيظل المبدع بين رائح وغاد، يرتشف القهوة، ويحدق في الوجوه، ويكتب ما تفرزه الأحاسيس والمشاعر.

الكتابة ... المقهى والذاكرة المسكونة

الكتابة بين المقهى والذاكرة المسكونة، يتحدث عنها القاص والباحث كمال العيادي المقيم بمدينة ميونيخ الألمانية. وعن تجربته والمفارقات التي عاشها بين مقاهي القيروان وتونس وألمانيا وموسكو، يقول:

«يخيل إلي أحيانا، أن كل ما يكتبه الكتّاب والشعراء، إنما هو من بعض بقايا فتات الإبداع المنثور فوق موائد «المقاهي» الخشبية. ان «المقهى» يمثل الغرفة الأرحب في قلب المبدع. فهي عالمه الضيق حينا، والمتسع أحيانا. بديل عادل عن طاولته بالبيت، المحددة بأربعة مقاعد، تضيق مسبقا بضيف خامس، وإن اتسع له قلب المضيف المبدع. ففي «المقهى»، وجوه تتدافع بجدل في ممرات عالمك الشخصي دون أن تضطر لشد جرس الباب، وطلب الإذن بالدخول. إطلاقا لا يزعجك ذهابها دون تسليم، ولا حلولها دون تحية. مملكة خاصة لا يشاركك في ملكيتها أحد. رغم كثرة ملاكها. فكل الرواد شركاء، وكل يدعي علنا بأنها بيته، دون شعورك بضرورة الدفاع عن ملكيتك، مملكة لا تضيق بتعدد مالكيها وملوكها، وكل كرسي فارغ بها يشحذ قلبك رغبة في أن يمتلىء بمالك جديد، وجليس ينازعك عن حب وأريحية ملكية ما تملك. فالشركاء شرط لوجودك فيها وسبب لبقائك بها. عالم لا تختار شخوصه، وهو فرصة لرد الاعتبار للكرم البديهي في أعماق وجبروت ذاتنا الأصيلة رغم نزق الوقت والمادة.

وكيفما كان حضور «المقهى» وأينما كان موقعه الجغرافي، بين بلد وآخر فهناك بالتأكيد قواسم مشتركة وثابتة لا يمكن عدم الانتباه لها، فهي مدارات لتفاعل الماضي بالحاضر، وصورة مصغرة تمكّن من رصد الواقع والخبرة الحياتية للمجتمع. وفرصة للمّ الذكريات وشحذ العواطف بكل أبعادها من الحب إلى الكراهية مرورا باللامبالاة. وهي كذلك حافظة الطرائف والنوادر والحكايا الجميلة البريئة أو الماكرة المسيئة. ولا يمكن أن يخلو «مقهى» من روّاد من أولئك الذين يرشون في أجوائه توابل الحكايا وملح الأخبار التي تؤذي في بعض الأحيان ولكنها ضرورية لاستقبال الصباح الموالي بأكثر دربة وخبرة وحياة. ولا أظن أن «مقهى» ضاق يوما بشاعر متسع القلب، إن كل أباطيل التشنجات العابرة لا تؤذي جوهر روح المبدع الأصيل ذلك أنها بعض منه.

وقد كانت «المقاهي» دوما شريطا لاصقا بالواقع الخارج عن جدرانها الأربعة. تدجّن فيها الأخبار وتفرغ مع بنّ قهوتها وحشيشة شايها رغبات المثقفين الفاعلين والكسالى الخاملين الذين يتخذون من طاولات «المقهى» بديلا لفشلهم الآني أو المزمن. فهناك فقط يصطف جنود السرد البكر الآسر بثبات لضرب مواقع الصمت وبؤس السكون. والكتاب عموما هم أكثر المنتفعين من فضاءات «المقاهي». ولعل أجمل الأشعار والحكايا، هي تلك التي نقشت في ذاكرة الجليس قبل نقشها على بياض الورق. فاختلاط الروائح من عطور قاسية ودافئة وحوامض الأجساد الطيبة والمكثفة واختلاط طبقات الأصوات والهمهمات والأسرار التي يسبق إذاعتها طبق الإغراء بلفظ أرجوك هذا سر. والإحساس اليومي بالمغامرة، فأنت لا تعرف بمن ستلتقي اليوم، جليس رائع يملأ قلبك بهجة وامتنانا، أو آخر يعكّر أحواض مزاجك. في بيتك تفتح لمن تشاء أما في المقهى فأنت الصاحب الضيف. وحيزك مغلق بحدود طاولتك، لكنه في نفس الوقت مفتوح لنفس السبب.

لقد كان «المقهى» لذلك أينما كان، وكذلك شروط كينونته تكاد تكون رغم توزعها واحدة. حتى أنني لا أعتقد أن هناك خلافا جوهريا بين «المقهى» الذي أرتاده بميونيخ أو ذلك الذي كنت أرتاده بموسكو خلال فترة الدراسة الجامعية الأولى. هناك اختلاف ظاهري يخدع الغافل عن الأصل، مثل اختلاف شكل تصفيف الكراسي والطاولات ومواعيد الفتح والإغلاق ونوع الموسيقى المصاحبة ولباقة النادل أو نظافة المكان ومنفضة السجائر. أما إذا حدث وقشرت غشاء الشكل الملوّن فإنك واقع على تشابه يكاد يكون التطابق نفسه.

كنت منذ سمح لي بالجلوس المبكّر «بمقاهي» مدينة القيروان أشعر بأنها بيتي الحقيقي الدّاكن. وحتى قبل ذلك بسنوات طويلة وأنا طفل يتجنّب الأكبر سنا بقليل اصطحابه لأنه لا يسكت، كنت ألقي بدراجة الهواء على الرصيف البعيد عن بيتنا لأسترق النظر منبهرا بحلقات النقاش الكبريتي الساخن التي كان أبي رحمه الله طرفا فيها، حتى أنّه كان يعرف ذلك، وحين تنكّر عليه أمي فيما بعد وتهدد كعادتها بالصيام عن الكلام لأيام وهو أقسى عقاب لجميع سكان بيتنا، كان يقول إن «المقاهي» للرجال، يقولها مضخمة بنوع من النخوة التي أورثني إياها مع كل الديون الأخرى فيما بعد. كان أبي ساردا باهرا، وكان يذهلني وهو يتلاعب بمعاني الكلمات. وحين كنت أعبس كان يأمرني جادا بأن أحلب له ناقة الابتسام وأشرب قبله لتنفرج شفتاي.

بعد ذلك وحين بدأت أول العروق السود تضايق الزغب الأصفر في وجهي، متوثبة مع قوافي المتنبي وجرير والفرزدق، اكتشافاتي المبكّرة قبل أغاثا كريستي وأرسين لوبين، كنت أتوغل بعيدا عن الأحياء القديمة وأتابع برهبة من بعيد الشاعر جعفر ماجد وهو يلوّح بيديه في حين كان الشاعر نور الدين صمّود يسند ذقنه بسبابته. كنت لا أسمع ما يدور من حديث رغم أنّه كان بإمكاني أن أقترب أكثر ولكنني كنت أرتجف من الرهبة، كنت أحس الشعر أدغالا أشدّ كثافة من مرتفعات الأمازون. وكان للكلمات بخور عابق مليء بالغموض والأسرار. كنت أشعر أن المعاني فخاخ تصطاد الغافلين. لذلك لم أتجرأ إطلاقا على الاقتراب.

وبقيت إلى اليوم مسكونا برهبة «المقاهي». حتى أنني كنت حين أعود لمدينة القيروان التي فقدت في الأثناء أكثر أسرار طقوسها قدسيّة عندي، أتجنّب الجلوس عند تلك الطاولة حيث كان يتحلّق الشعراء الإخوان الشاذلي العلاني ومحمّد مزهود ونور الدين صمّود وجعفر ماجد وفيما بعد المنصف الوهايبي ومحمّد الغزي وصلاح الدين بوجاه وعبد الجليل بوقرّة وغيرهم.

حملت الكرسي الفارغ الذي لم أجلس عليه أبدا بذلك «المقهى»، عند تلك الطاولة معي كامل الوقت في حقائب ذاكرتي المبللة بعسل القرآن وحليب القوافي الطازج وأخذته معي إلى كل المدن المليئة بالصقيع أو بالألوان. وكان يحدث كثيرا أن يفتقدني أصدقائي بموسكو في حين كنت أضرب في الأرض الغريبة باحثا عن «مقهى» معزول. وكتبت أجمل نصوصي التي أضن بها عن النشر. وكذلك فعلت ببودابست وبحي البالفي بباريس و«مقهى» ساحة غاري بالدي بإيطاليا. و«مقاهي» الإسكندريّة والحسين والأزبكيّة وبولاق. وقبل ذلك كان أول قصيد أكتبه بتونس العاصمة وأنا أحطّ رحالي بأول «مقهى» أعجبني، وحين يألفني نادل المدينة، أجلس «بالمقهى» وأتابع في صمت، امتلاء منفضة السّجائر...

وفي مدينة ميونخ أيضا، حيث أمارس حق المواطنة وأتحايل على البقاء نقيّا رغم حنيني للصخب أحيانا، كان «المقهى» وسيبقى موطني بين حدود الأوطان التي تستوطنني. غيّرت «المقهى» الذي أرتاده ثلاث مرّات، كان «المقهى» الأول بشارع الأتراك الذي سمي كذلك ربما لأنه الشارع الوحيد الذي لا تصطدم فيه بتركي واحد. كان اسمه «مقهى» الأونسويفايتا وترجمة اسمه الحرفيّة (إلى آخره..) ظللت أرتاده لسنوات صحبة قاص تونسي. وكتبت على طاولاته أحلى القصص التي تبكيني وتضحكني إلى اليوم. ثمّ غادرته آسفا بعد أن استحالت معاشرة ذلك القصاص.

من النادر جداً أن أكتب بعيدا عن «المقهى»، في البيت أرقن بضجر ما أسوّده «بالمقاهي» على بياض الورق. «المقهى» الذي أرتاده اسمه «مقهى» العالم ويقع تماما في منتصف شارع شفانتالا شتراسيا. خلال شهر رمضان المبارك أغيّر «المقهى». لأنني أحب سماع القرآن «بمقهى» إبراهيم المرّوكي بالمنطقة الجنوبيّة. ألعب الورق ولا أكتب. وأخاصم جليسي من أجل بطئه في رمي الأوراق، ونضحك عاليا حين ينهي أحدنا اللعب منتصرا.

في تونس لا أكتب في «المقاهي» إطلاقا، وأفكر في صلح جديد مع «مقاهي» تونس والقيروان. ربّما أحتاج فقط إلى بعض الوقت لإيجاد صيغة للسكينة. قد يأتي الوقت الذي أغير فيه طقوسي في الكتابة. أنا أحب التعلم والإمكانيات المفتوحة. ثمّ إنني لا أتعمّد النسق بقدر ما أحاول استنزافه بشكل ما أما الآن فهناك «مقاه» كثيرة يجب أن أرتادها وآلفها ما استطعت».

فضاء للثقافة ام السياسة؟

سألت المخرج والكاتب المسرحي كمال العلاوي: هل ثبت إذن أن المقهى فضاء ثقافي بعد أن كان فضاء سياسيا؟ فرد بقوله:

«أنا من أولئك الذين يترددون على «المقاهي» ويقضون الساعات من أجل تحرير بعض الصفحات سواء المسرحية أو المقالات الصحفية أو المذكرات. هذه العادة اكتسبتها منذ نهاية الستينات من القرن الماضي في تونس العاصمة، ثم حملتها معي في كل مدينة أعمل بها.

طبعا ريادة «المقهى» ليست أمرا جديدا، فأنا أعرف مثلا أن بالحي اللاتيني بباريس كان سارتر وجان جينيه وادموند وميشيل فوكو وحتى عبد الرحمن بدوي يترددون على «المقاهي» ويخرجون بكتابات وأحيانا ببيانات تخص مواقفهم من عديد القضايا السياسية منها والفكرية والاجتماعية، كذلك الأمر في عديد البلدان العربية حيث يلتقي الشعراء والأدباء يتحاورون ويختلفون في الرأي ويتخاصمون، ومن خلال كل هذا تمتلئ صفحات المجلات وأعمدة الصحافة بمادة تثري الأدب والفكر والفن. في تونس السبعينات مثلا كان هناك تطاحن إيديولوجي فاليسار بمختلف اتجاهاته واليمين بمختلف اتجاهاته وحتى الحياديين أو أولئك الذين لا يؤمنون بدخول البوتقات، كل هؤلاء كانوا يلتقون في «المقاهي» وبالرغم من اختلاف الرأي بينهم فإن ودهم لبعضهم ثابت لأن هذا الاختلاف قد أثرى الحركة الثقافية في كل المجالات سواء في الأدب أو الشعر أو المسرح أو السينما أو حتى اتجاهات الحركة التشكيلية والموسيقية. وعلى هذا تطورت الحركة الثقافية بشكل عام لأن المبدعين قد اقتربوا شيئا فشيئا من المواطنين. طبعا في البداية كانت الصور المنقولة في أعمالهم تكتسي صبغة واقعية إلى حد النقل الفوتوغرافي كأن نصور ملامح «مساح الأحذية» وما تحمله من حزن أو «الشيال» أو «جامع الزبالة» أو «المومس» المتجولة أو سائق التاكسي، طبعا أصبحت هذه الشخصيات في الزمن الراهن تحمل دلالات أخرى سواء في مهامها أو عبر الأدوات التي تستخدمها إذ بإمكان المبدع بوسيلة «الفنتازيا» أن يجعل من الزبالة مادة تنطوي على أسرار وخفايا رهيبة. ويمكن لماسح الأحذية بحكم احتكاكه بالناس وفهمه لبواطنهم من خلال ظاهرهم أن يجعل من مهنته تغطية لعمل سري فيه مثلا نقمة واحتجاج على وضعه السيء.

وما ذكرته لك هو تبرير للكتابة «بالمقاهي» فقد أجد الإلهام من خلال تلك الوجوه والملامح المختلفة التي تعج بها «المقاهي» وقد أستمع إلى حوارات غريبة سواء من طرف الشيوخ وهم يستعرضون الأحداث السياسية، على طريقتهم أو يعبرون عن سخطهم على الجيل الجديد وهو يكسر قيمهم البائدة أو حوار الشباب حول آخر شطحات الموضة في اللباس أو الرقص العصري وحول سهراتهم الماجنة أو حول غرامياتهم وخيباتهم وأحيانا حول نقمتهم على الكهول، وعدم انسجامهم مع الحياة العائلية... فالقلم مثل عصا الأعمى مرة يرتكز على أرض نظيفة ومرة على ارض قذرة.

المقهى سيظل قبلة المبدعين... وسيظل المبدع بين رائح وغاد يرتشف القهوة ويحدق في الوجوه ويكتب ما تفرزه الأحاسيس والمشاعر....

إلى الآن أكتب «بالمقاهي» رغم تقلص الحلقات الفكرية بها ربما بسبب التعود، ولكن الحقيقة أنني أحن إلى أجواء «المقاهي»... أحن إلى «مقهى» الزنوج و«مقهى» المغرب و«مقهى» الكون وغيرها في العاصمة تونس فقد كانت الطاولة تجمع بين اليساري واليميني والمتطفل والمومس والشرطي والصعلوك وكانت الحوارات تبلغ حدا معينا من الحرارة يوحي بالكتابة وبالإبداع.

الاكاديمي والمقهى

الرجل الأكاديمي هل هو أيضا من رواد «المقهى» أم أن له رأيا مغايرا؟ بتوجهي إلى الدكتور مبروك المناعي مدير دار المعلمين العليا وأستاذ الشعر القديم عن علاقة الأكاديمي «بالمقهى» توقعت عكس ما سمعت إذ أن للأكاديميين نواميسهم الخاصة في الكتابة واعتمادهم على المراجع التي لا تتسع لها طاولات «المقاهي»، لكنه ذكر قائلا:

أولا ـ «المقهى» لم نتعرف عليه كأكاديميين بل تعرفنا عليه منذ كنا شبانا وتلاميذ، واذكر عندما كنت تلميذا بمعهد الصادقية أن هناك «مقاهي» بين المعهد والعاصمة كنا نذهب إليها قبل الدروس أو بعدها، مثل «مقهى» الديوان في نهج القصبة بالعاصمة تونس و«مقهى» الأندلس في نهج جامع الزيتونة، في أواخر المرحلة الثانوية كان يطيب لي أن اجلس في هذه «المقاهي» أراجع الكثير من الدروس أطالع الروايات والكتب الأدبية والمجموعات الشعرية، وشيئا فشيئا تكونت لي عادة الجلوس في «المقهى». جلوس ذو طابع ثقافي وعلمي، وفي السنة النهائية من التعليم الثانوي كنت ومجموعة أصدقائي نفضل الجلوس في «مقاهي» العاصمة، لان «المقهى» هو منطقة وسطى بالنسبة لمساكننا نجتمع فيها دون مواعيد، وتواصلت علاقتي بمقاهي العاصمة حتى في مرحلة الأستاذية، وكانت تعجبني هذه «المقاهي» أكثر من المكتبات وكنت اذهب للمكتبات عندما لا أجد المرجع الذي احتاجه ولكن كلما توفر لي الكتاب أخذته معي واصطحبته إلى «المقهى» لأن جو المكتبة الهادئ جدا والرتابة يسببان لي النعاس، بينما «المقهى» يتوفر على كل شيء، وكان لا يهمني من «المقهى» إلا ذلك المتر المربع أي الركن الذي أجلس به، أما ما تبقى من أصوات وموسيقى وأناس يروحون ويغدون فهو نوع من الديكور أجعله في خلفية ما أنا فيه، إلى أن أصبحت هذه الخلفية ضرورية. والحقيقة أن «المقهى» شهد بداياتي الإبداعية من محاولة كتابة الشعر ودراسة الروايات والبحوث الصالحة لإنارة المسائل التي كنت بصدد دراستها في التعليم العالي، والأسباب كثيرة جدا وربما كان أحد الأسباب هو عدم توفر الهدوء في المنزل وكنت أيضا أجد الأصدقاء وجوا من الحرية النسبية في «المقهى» لا أجده في البيت، جملة من العوامل جعلت هذا الأمر يتحول إلى نوع من العادة، وهذه العادة لازمتني إلى الآن وإن كان الوقت قد قل لذلك. «المقهى» احتضن مراجعاتي وقراءاتي الهادفة، واحتضن قراءاتي التي كانت على سبيل المتعة والثقافة العامة بل وهذا أخطر ما في الأمر احتضن المقهى كذلك بعض كتاباتي النقدية وخاصة الكتابة النقدية المتمثلة في تحليل الشعر وفي كتابة النصوص عن النصوص، يعني الكتابة القراءة أو الكتابة الناقدة الواقعة على منتجات إبداعية وعلى الشعر خاصة، ناهيك أن الجزء الأكبر من كتابي عن المتنبي كتبته في «مقهى» بمنطقة مقرين بالضاحية الجنوبية للعاصمة تونس لأنني كنت أثناء ذلك اسكن بمقرين وكنت استلذ الجلوس في هذه «المقهى» الذي كان رواده متنوعين، ولكن ربما كنت أمثل نوعية خاصة جدا من الرواد، فقد تكونت بيني وبين صاحب «المقهى» والعملة علاقة خاصة جدا جدا وكانوا يستغربون من وجود أستاذ وباحث ومثقف يقرأ ويكتب في «مقهى» والظاهرة إلى الآن تثير الاستغراب لأنه ترسخ في تقاليدنا الاجتماعية أن المقهى هو مكان للجلوس ولعب الورق والقمار وراحة العاطلين وبعض المتقاعدين والحديث في مواضيع شتى.

* كاتبة من تونس.

«المقاهي» دوما شريط لاصق بالواقع الخارج عن جدرانها الأربعة.... تدجّن فيها الأخبار وتفرغ مع بنّ قهوتها وحشيشة شايها رغبات المثقفين الفاعلين والكسالى الخاملين الذين يتخذون من طاولات «المقهى» بديلا لفشلهم الآني أو المزمن...